﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ سُـنَّـة الـلـه في الظّالمين إلى بيانِ سُنّته في رحمةِ العالَمين

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة أنَّه لا يُعْجِزُه ﷻ عن تحقيقِ ما يريدُه مِن شيءٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، وأنَّه قد أهلكَ الأممَ السّابقة التي كذّبت وعاندتْ، وآثارُهم واضحةٌ للعيانِ، وأخبارُهم تصلُ إلى كلِّ سامعٍ عاقل، ناسبَ الانتقالُ إلى بيان أنَّ تعذيبَ الأمم السّابقة ما كان ظُلمًا ولا هَضمًا لحقوقهم، بل هو رحمةٌ عظيمة، ولو أرادَ ﷻ أنْ يُعامل بالعدل لَما تركَ على ظهر الأرضِ من دابّةٍ، ولكنَّ رحمةَ الله وسِعَتِ العبادَ، فنالتْهم بالبقاءِ والاستمرار، فتركُ المؤاخذةِ فضلٌ وإحسان، لا عدلٌ وميزان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤَاخِذُ﴾: أصلُ (أخذ) يدلُّ على حَوْزِ الشَّيء وجَبْيِه وجَمْعِه وتحصيلِه؛ تقولُ: أخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أخْذًا؛ قال الخليلُ: هو خلافُ العطاءِ؛ وهو التَّناوُلُ، قال: والأُخْذَةُ رُقْيةٌ تَأْخُذُ العينَ ونحوَها، وهو تارةً بالتَّناوُلِ؛ نحوُ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر؛ نحوُ قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255][1]، والمقصودُ بالمؤاخذةِ في الآية: المُجازاة بالعدلِ.

2) ﴿كَسَبُواْ﴾: أصلُ (كسب) يدُلُّ على ابتغاءٍ وطلَبٍ وإصابةٍ، يُقالُ: كَسَبْتُ الشَّيْءَ، أي: طلَبْتُه[2]، ومنه الكَسْبُ: وهو ما يتَحرّاه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).

الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفْعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المال، وقد يُستعملُ فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلبُ مَنفعةً، ثمَّ استجلَبَ به مَضرَّةً[1]، ويُطلَقُ الكَسْبُ على الجَرْح، أي: فِعْلُ الشَّيء بالجارحة[2]، والمراد بالكَسْبِ في الآية: ما حصّلَهُ النّاسُ منَ المعاصي والمخالفةِ لأمرِ اللّه تعالى، بما يستحقّونَ به العقوبةَ.

3) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أَصلُ (دبّ) حَرَكَةٌ على الأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّهُ يُسَمَّى دابّة، والاسمُ العامُّ الدّابَّةُ لِما يُرْكَبُ، وتصغيرها دوَيبَّة[3]، يُقالُ: دبَّ القَومُ إلى العَدو دَبيبًا، أَي: مَشَوْا على هينتهم لم يُسرعوا[4]، والمقصودُ بقوله ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: من نَسَمَةٍ تدُبُّ عليها من بني آدمَ، وقيل: ومن غيرِهم أيضًا من شُؤْمِ معاصيهم[5].

4) ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: أصلُ (أخر) الدّلالةُ على خلافِ التَّقدُّم؛ فالآخِرُ نقيضُ المُتقدِّم، والأُخُرُ نقيضُ القُدُم، تقولُ: مضَى قُدُمًا، وتأَخَّرَ أُخُرًا، وآخِرَةُ الرَّحْلِ وقادِمتُه، ومُؤَخَّرُ الرَّحْلِ ومُقدَّمُه، والمرادُ بـ: ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ في الآيةِ يُمْهِلُ عقابَهُم ومؤاخذتَهم؛ بما كسَبوا إلى أجلٍ معلومٍ عندَه، ولا يُعجِّلُ ذلك[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ينتهي سياقُ السّورةِ بهذه الآية الكريمة ببيانٍ جانبٍ من رحمته، وكمالِ حِلْمِه، فيقولُ: ولو يُعاقِبُ اللّهُ النّاسَ على جَميعِ ما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ، ولم يُمهِلْهم أهلَكَ جميعَ النّاسِ والدَّوابِّ على ظَهرِ الأرضِ،

إمهالُ العبادِ للتَّوبةِ والأَوْبةِ لا للتَّكذيبِ والكُفران

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كسب).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (كسب).
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبَّ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دب).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 157.
(6) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (آخر).

ولكِنَّ اللَّهَ يُمهِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ إلى وقتٍ مَعلومٍ عِندَه، ثمَّ يُحِلُّ بهم عِقابَه، فإذا جاء وقتُ أخْذِهم فإنَّ اللَّهَ بعِبادِه بَصيرٌ، لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه؛ فسيُجازيهِم على ما صنَعوا لا محالةَ[1]، وفي الآية الكريمة تذكيرٌ للنّاس عن أن يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجزًا أوْ رِضًا مِنَ اللهِ بما هم فيه! فعَلَّمَهم أنَّ لِعذابِ اللهِ آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرينَ، أوِ استِبقاءُ أجيالٍ آتينَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ (الواو) وبلاغةُ استعمالِها:

من صوَر الحمدِ المذكورِ مطلعَ السّورة إمهالُ العبادِ إلى أجلٍ مسمًّى آخِرَها

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ لعطفِ الجملة على السّابقة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ إذِ الثّانية تُحقِّقُ الأولَى وتُؤكِّدُها؛ وإنَّما احتفَل القرآنُ بمضمون الآية؛ فأشعرَ باستقلالِها عمّا قبلَها؛ بتصديرِها بـ(الواو) التي لا يبرحُها معنى المُغايَرة؛ لأنَّ تلكَ الآيةَ بمثابةِ النِّداءِ الأخيرِ في السّورةِ على أهلِ المعصيةِ والكفرِ والشِّرْكِ؛ تُذكِّرُهم بعظَم نعمةِ اللهِ عليهم؛ مِنَ الإمهالِ، وتُرهِّبُهم مِن غضبِه وسخطِه وعذابِه الذي إذا جاءَ بمجيءِ أجلِهم فلن يُغْنيَ عنهم مِن ذلك مِن شيءٍ؛ فالاعتناءُ بالمُتلقّين؛ نعمةٌ توجِبُ حَمْدَ اللهِ؛ فتكونُ الآيةُ بهذا الاعتبارِ راجعةً إلى معنى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ [فاطر: 1] في صدر السّورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1]، فقد رجَع آخِرُها إلى أوَّلِها، وتحتملُ (الواو) أن تكونَ استئنافيَّةً.

معنَى (لو) ودلالتُها:

الإمهالُ نعمةٌ تستحقُّ الشُّكرَ لا الإهمالَ

أداةُ (لو) حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، أي: امتناعِ وقوعِ الجواب لامتناعِ وقوعِ الشَّرْطِ، وهذا الحرفُ لا عمَلَ له؛ فهو شرطٌ غيرُ جازمٍ، ومعناه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 444.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾: أنَّ الله لم يُعامِلْهُم معاملةَ المُؤاخِذِ المُناقِشِ، ولو عاملَهُم معاملتَه لعجَّل إهلاكَهُم؛ والآيةُ تذكيرٌ للنّاسِ بنعمةِ الحِلْمِ والإمهالِ؛ حتَّى لا يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجزًا أوْ رِضًا مِنَ اللهِ بما هم فيه! فأعلَمَهم أنَّ لعذابِه آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرينَ، أوِ استِبقاءُ أجيالٍ آتينَ[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأَخْذِ؛ مادَّةً وصيغةً:

مفردةُ المُؤاخذةِ توحي باللُّطفِ وتومئُ إلى الامتنان

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (الأخذِ) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ الذي مدارُه على حَوْزِ الشَّيءِ وجَبْيِه وجَمْعِه؛ تارةً بالتَّناوُلِ، وتارةً بالقهر؛ تنبيهًا على معنى المُجازاة والمُقابَلة لِما أخَذوه مِنَ النِّعَم[2]؛ فشبَّه المجازاةَ بالأخذِ على جهة الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ ويجوز أنْ يكونَ مِن قبيلِ الكِنايَةِ؛ والتَّعبيرُ بالأخْذِ يعني استحضارَ ما كانوا فيه مِن نِعَم، وإقامةَ الحُجَّة عليهم؛ حتّى لا يكونَ لهم نوعُ اعتذارٍ؛ وهذا يرجعُ إلى قوله تعالى في مطلع السّورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: 3]، وفيه دلالةٌ على الشِّدَّة والغضَب، ونظَمَ القرآنُ معنَى الأَخْذِ المسندِ إلى اللهِ تعالى في صيغةِ المُفاعَلةِ؛ لأنَّ دلالتَها على المُناقَشةِ أبلغُ[3]، وهذا كلُّه يدلُّ على عظيمِ امتنانِ اللهِ سبحانه عليهم بنعمةِ الإمهالِ.

دلالةُ ذكرِ اسْمِ الجَلالة:

إنَّما يُجازي العبادَ ويُؤاخِذُهم المَلِكُ الأعظَمُ

جاء ذكرُ اسْمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ مع أنَّه قد سبَق ذكرُه في الآية السّابقةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 281.

ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾؛ فلم يأتِ به مُضمرًا؛ لأنَّ ذِكْرَه أدلُّ على الهَيْبةِ في مقامِ الجلالِ، الذي يُقرِّرُ فيه تعالى أنَّه الإلهُ الحقُّ العليمُ بأحوالِ العبادِ وأعمالِهم، القديرُ على حسابِهم ومُجازاتِهم وأخْذِهم وإهلاكِهم متَى شاءَ؛ لِما له مِن صفاتِ العُلوِّ والقَهْرِ.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دون (المشركين):

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ دالٌّ على العموم، والمرادُ به كلُّ مَن صدر عنه فسادٌ ومَعصيةٌ من شأنها المجازاةُ بالعذابِ، واستُعملَ دون التَّصريح بالمشركين ونحوه؛ لبيانِ عموم الفسادِ وانتشارِه، ولعلَّ في هذا الاستغراق والعموم إشارةً إلى أَنَّ الله تعالى لا يُعاجلُ الكافرينَ والمؤمنينَ بالجزاء، وإلّا فلو جازاهُما بإهلاك الظّالمين وإدخالِهم النّارَ، وإماتةِ المؤمنينَ لفوزِهم بجنّاتِ ربِّ العالمين ما أبقى على الأرضِ من دابّة.

معنى (الباء) ودلالتُهُ:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ للسَّببيَّةِ؛ ففيها إعلامٌ بتسبُّبِ المُجازاةِ والمؤاخذةِ عنِ العمل الَّذي كَسَبوه؛ فلولا اللُّطفُ لوقعَ العذابُ.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ بينَ (الكَسْبِ والظُّلْمِ):

جاء استعمالُ لفظِ (الكَسْبِ) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ في صورةِ (ما) المصدريَّةِ والفعلِ الماضي؛ أي: بكَسْبِهم؛ فأمّا خصوصُ الكَسْبِ فلأنَّ السّياقَ لأفعالِ الجوارحِ؛ نظرًا إلى قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾؛ لأنَّ المكرَ والكِبْرَ إنَّما تُكْرَه آثارُهُما، لا الاتِّصافُ بهما؛ لدورانِ مادَّة (الكَسْبِ) على الابتغاءِ والطَّلَبِ والإصابةِ، والكَسْبُ أعمُّ مِنَ الظُّلْمِ؛ فيدخلُ فيه المذكورُ مِن أعمالهم، وأمّا فكُّ المَصْدرِ فلأنَّ صريحَ الفعلِ يَخُصُّ ما وُجِدَ مِنَ الكَسْبِ بالفِعْلِ؛ سواءٌ كان حرامًا أم حلالًا؛ مِن جميعِ أعمالِهم؛

الكسبُ جاء في بيان عمومِ الأعمال الفاسدة، والظّلمُ اختصَّ بما دلّ عليه معناه

ليقوَى ترتُّبُ العقابِ عليه؛ ترهيبًا وتهديدًا، ويجوزُ أنْ تكونَ: (ما) اسْمًا موصولًا، أي: بالَّذي كسَبُه؛ وفي كونه كذلك تنبيهٌ على أنَّ النّاسَ مُقِرّونَ بأعمالهم، وأنّهم حَقيقونَ بجزائها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ لأنَّ الصِّلةَ يجبُ أنْ تكونَ قصَّةً معلومةً للمُخاطَبِ، ثابتةً للموصولِ كالصِّفَةِ.

وجاءَ استعمالُ مفردة (الظُّلم) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: 61]؛ لأنَّ السّياقَ في بيانِ ظُلمِ المشركينَ، ابتداءً من ذكرِ ظُلمِ الشِّرك، والظُّلمِ الاجتماعيِّ الَّذي يُمارسونَهُ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: 56 - 59].

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

قولُه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾: جوابُ (لو)؛ لا محلَّ له مِنَ الإعراب؛ لأنّه جوابُ شرطٍ غيرِ جازم، و﴿مَا﴾ نافيةٌ، ومَدُّ الألفِ في ﴿مَا﴾ يناسِبُ سياقَ التَّأخيرِ والإمهالِ، والمعنى: تركَ اللّه على ظهرِها مِنَ المخلوقات لامتناعِ المُؤاخذةِ العاجِلة.

بلاغةُ استعمالِ (التَّرْكِ):

الاستئصالُ من مُقتضيات العدْلِ ولولا الرَّحمةُ لوقعَ

جاء استعمالُ مفردة (الترك) في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ عذابَ النّاسِ عامَّةً والمشركينَ خاصَّةً في الدُّنْيا لو عُجّل لكانَ عذابَ استئصالٍ؛ تقومُ القيامةُ بعدَهُ؛ لأنَّ نفيَ التَّرك يدلُّ على الاستئصال التّامِّ، لاسيّما مع استعمال ﴿مَا﴾ النّافية في جواب (لو)، ودخول ﴿مِن﴾ على ﴿دَآبَّةٍ﴾ المُقتضي للعمومِ كذلك.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال (الظَّهر):

جـزاءُ التَّمكينِ مـنَ الأرضِ التّـمـكُّـنُ مـنَ العبادةِ

استعملَ النَّظمُ لفظَ (الظّهر) في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ "والظَّهْرُ: حقيقتُه متنُ الدّابَّة الّذي يَظهرُ منها؛ وهو ما يعلو الصُّلْبَ مِنَ الجسد؛ وهو مقابلُ البطنِ؛ فأُطْلِق على ظهْر الإنسانِ أيضًا؛ وإنْ كانَ غيرَ ظاهرٍ؛ لأنَّ الَّذي يَظهر مِنَ الإنسان صدرُه وبطنُه، وظهرُ الأرضِ مُستعارٌ لبَسْطِها الَّذي يستقرُّ عليه مخلوقاتُ الأرضِ؛ تشبيهًا للأرضِ بالدّابَّة المركوبةِ؛ على طريقةِ المكنيَّة، ثمَّ شاعَ ذلك؛ فصارَ مِنَ الحقيقةِ"[1]، والتَّعبيرُ عن بَسْطِها بالظَّهر الَّذي للدّابَّةِ في أصلِ الاستعمالِ؛ جعْلٌ للأرضِ كالدّابَّةِ؛ دلالةً على أنَّ الكلَّ في مُكنةِ القديرِ ﷻ؛ وكأنَّ الكلَّ شيءٌ واحدٌ في جانب قدرةِ اللّه؛ على طريقة التَّسْويةِ المثبّتةِ في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ في (الإظهار والإضمار):

مناسبةُ عمومِ المـعـاصي لخصوصِ الظّهر وخـصـوصِ الظُّلم لعُمومِ الأرض

جاء التَّعبيرُ عنِ (الأرض) في هذه السّورة بالظّهر فقال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾، بينما في سورة النَّحل جاء التَّعبيرُ بالإضمار، فقال تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: 61]، والمرادُ في الآيتين الأرضُ بدلالةِ السّياق، وهو أمرٌ معلومٌ لا يخفى، لكنْ لسائلٍ أنْ يسألَ عن نكتةِ إظهارِ لفظ (الظّهر) في فاطر، وإضمارِه في النّحل، والجوابُ أنَّ سورة فاطر جاء فيها ذكرُ اختلاف الألوان في الجبال، وهي الظّاهر منَ الأرض، وهي موضع الجَمال والبهاء، فذكر ﷻ أنَّ هذا الإتقانَ في خلق الجبالِ والجمال الكامنينِ فيها لا يمنعُ لأجل المحافظةِ عليه من إنزالِ العذاب، فكان في ذكر (الظّهر) تخصيصٌ لعموم الأرض، إذِ الظّهرُ هو ما يظهرُ منها، أمّا آية النَّحل فقد جاء فيها الإضمارُ للدّلالةِ على العموم، أي عمومِ الأرض، وهذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 340.

أبلغُ في سياق الظُّلم والشِّرك؛ لأنَّ خصوصَ الظُّلم أشدُّ من عموم المعاصي المكتسَبةِ، وعدمُ التّرك لا يقتصرُ على ظهرها بل يتعدّاه إلى عمومِها.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

جاءَ استعمالُ حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظاهرِه؛ ليشيرَ إلى سرعةِ الإهلاكِ وشِدَّته؛ والقرآنُ يذكُر المشهدَ الأخيرَ في الإهلاكِ؛ فليس كمِثْلِ قدرتِه قدرةٌ.

نكتةُ تقديمِ القيدِ على المفعول به:

أُخِّر قولُه تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهو مفعولُ فِعْلِ التَّرْكِ عن قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾؛ لأنَّ البدءَ بذكر عدمِ تركِ شيءٍ على ظهرها أبلغُ في سياقِ التّهديد من ذكر عدمِ تركِ دابّة، وهو الّذي يُبيِّن كمالَ اقتدارِ اللّه على الأرض؛ فدلَّ التَّقديمُ على شدَّة الاقتدارِ على كلِّ دابَّةٍ؛ لسَبْقِ بيانِ الاقتدارِ على ما يَحْمِلُ كلَّ دابَّةٍ.

التَّرهيبُ والوعيدُ من عِللِ تقديمِ بعضِ القيودِ على بعض

دلالةُ العمومِ في قيدِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾:

دخلَ حرفُ ﴿مِن﴾ على لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لزيادةِ العمومِ والتَّوكيد، واختيرتْ مفردةُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ نكرةً لبيانِ العموم.

بلاغةُ التّغليبِ في ﴿دَآبَّةٍ﴾:

غلّبتِ الآيةُ في الاستعمال مفردةَ ﴿دَآبَّةٍ﴾ في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وهي تشملُ العقلاءَ وغيرَ العُقلاء، منَ البشرِ وسائرِ الحيوانات، وكلِّ ما يصحُّ إطلاقُ الدّابة عليه، وهذا ما يقتضيه المعنى اللّغويُّ لهذه المفردة؛ وذلك لتوبيخِ البشر بتنزيلِهم منزلةَ الدّوابِّ، ولإشعارِهم أنَّ ما أصاب الدّوابَّ إنّما هو بسبب كَسْبِهم، وأنَّ خيرَ الدّوابِّ قد لَحِقَهم، وشرَّهم لحِقَ الدّوابَّ، ففضل الدّوابُّ العاصينَ من هذا الباب.

خيرُ الدّوابِّ لَحِقَ البشرَ وشرُّ البشرِ لَحِقَ الدّوابَّ

بلاغةُ الوَصْلِ بالواوِ:

مـزيـدُ العنـايةِ بالجملِ المتّصلة يُنزّل كـلَّ جملة مـسـتـقـلّةٍ عن أُختِها

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عاطفةٌ للجملةِ على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ وبينَ الجملتينِ كمالُ اتِّصال؛ لأنَّ الجملة الثّانيةَ تقرِّرُ معنى الجملة الأولى؛ لأنَّ تأخيرَهُم إلى أجلٍ مُسمّى يلزمُ معنى الجملةِ السّابقة التي تقرّرُ أنَّ هلاكهم لم يقَع؛ لأنَّ المؤاخذة لم تقَع؛ وكمالُ الاتِّصال يقتضي غيابَ الواوِ؛ وإنّما أشعرتِ (الواو) باستقلال ما بعدها عمّا قبلها؛ اعتناءً به؛ تنبيهًا على امتنانه تعالى على النّاسِ بنعمةِ الإمهالِ إلى أجلٍ مُسَمًّى.

نكتةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستدراك:

الإيـمـاءُ إلى اسـتـحـقـاقِ المُـشـركـينَ العذابَ بقوّةٍ

جاءَ استعمالُ حرف الاستدراكِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ دلالةً على شدَّة استحقاقِهم العذابَ في الدُّنْيا؛ فكأنَّ حالَهُم يَسْتَوْجِبُ المؤاخذةَ والعقابَ والهلاكَ، ويستدعي ذلك بشِدَّةٍ؛ مع أنَّ الله قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ كأنَّ المُتلقّينَ لا يُصدِّقون ذلك، ويُحرِّكُهم نحوَ توقُّعِ حُلولِ العذابِ بهِم عِظَمُ ما كسَبوا مِن أعمالٍ سيِّئةٍ، فكأنَّه استدركَ ذلك عليهم؛ فقال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ ففي (لكن) بيانٌ لعِظَمِ جُرْمِ النّاسِ والمشركينَ؛ إبلاغًا في تهديدِ النّاسِ عامَّةً وترهيبِهم مِن مُطلقِ معصيةٍ، وتهديدِ المشركينَ خاصَّةً وترهيبِهم مِنَ الكفرِ والشِّرْك، وبيانٌ لعظيمِ حِلْمِ اللهِ عليهم.

علَّةُ التّعبيرِ بلفظ (التَّأخيرِ):

القـرآنُ يـزرعُ قـيـمَ الـهـدايـة في الـقـلـوب لـيُـحـرِّكـهُـم للإيمانِ

جاء استعمالُ مفردة التَّأخيرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ لتنبيهِ أهلِ الشِّرْكِ والكفرِ خاصَّة على تأخُّرِهم عنِ اتِّباعِ الحقِّ والانقيادِ للهُدى، ومَن كان كذلكَ لم يَكُنْ في تُؤَدةٍ وسكونٍ حقيقيَّيْنِ؛ بل كانَ في عكسِ ذلك تمامًا؛ وإنْ ملَك الدُّنْيا بأسْرِها؛ بدليلِ

نفورِهم مِنَ النَّذيرِ؛ لَمّا جاءَهُم، واستكبارِهم في الأرضِ، ومكرِهم المكرَ السَّيِّءَ، وفي اختيارِ هذا اللَّفظ إشارةٌ إلى تفسيرِ لازمِ مضمونِ قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي ولو يُعجّل اللّه الحسابَ والجزاء بمجرَّد وقوعِ المعصية والكفر منهم ولكنْ يُؤخّرُهم، فيكون بينهما طباقٌ غرضُهُ الامتنانُ وبيانُ عظيمِ الحِلْم والحِكْمة.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

رُبَّ حذفٍ أبلغُ من ذكْرٍ، ورُبَّ محذوفٍ يُعلَمُ مِن مذكور

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، والنّاسُ لا يتأخَّرونَ إلى هذا اليوم أحياءً، وإنَّما يموتونَ جميعًا، ثم يُحْشَرون؛ فكان ذلك قرينةً على حذفٍ؛ والتَّقديرُ: ولكن يؤخِّرُ مؤاخذتَهم - أي: مُجازاتَهم - إلى أجلٍ مسمّى؛ وفي تسليط التَّأخيرِ على الذَّواتِ نتيجةً للحذفِ إبلاغٌ في التَّوعُّدِ بالعقابِ، وفي أنَّه آتٍ لا محالةَ؛ لأنَّ تأخيرَ الذّاتِ تأخيرٌ لِما سوف يقومُ بها مِن بابٍ أَوْلَى، وفيه تنبيهٌ على قوّة اتِّصافِهم بالذُّنوبِ التي أَوْجَبَت لهم المجازاةَ والمؤاخذةَ الَّتي أَخَذوا حُكْمَها في تسلُّط التَّأخيرِ عليهم.

دلالةُ صيغةِ المضارعةِ:

المشركونَ يُجدِّدونَ سوءًا ويُجدِّدُ الله لهم إحسانًا

نَظَمَ القرآنُ معْنَى التَّأخيرِ فِعْلًا مُضارعًا في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ ليدلَّ على أنَّ النّاسَ عامَّةً وأهلَ الشِّرْكِ والكفرِ خاصَّةً يكونُ منهم على جهةِ التَّجدُّدِ ما لو أَخَذَهُم اللّهُ به أهلكَهُم، فالمضارعةُ تبرزُ قبحَ النّاسِ وسوءَهُم مِن جهةٍ، وجميلَ صُنْعِ اللّهِ بهم ومعَهُم من جهةٍ أخرى.

نكتةُ استعمالِ حرف ﴿إِلَىٰٓ﴾:

دَمْجٌ بينَ الامتنانِ والإنذارِ

جاءَ استعمالُ حرف الانتهاءِ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للدّلالةِ على طولِ الإمهالِ والتّأخيرِ؛ معَ أنَّ ما كسبوا يَستوجبُ أنْ يقَع بهم العقابُ والمؤاخذةُ بشِدَّةٍ، وللإشارةِ إلى أنَّهُم مهما طغَوْا واستكبَروا وأصرّوا على معصيتهم، وكفرهم

وشركهم فإنَّ لوجودِهم في الحياةِ الدُّنْيا نِهايَةً وانتهاءً؛ فإذا جاءَ أجلُهُم أُخِذوا بِشِدَّةٍ؛ ففيه إنذارٌ وتهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ وواضِحٌ، ويستلزمُ حرفُ الانتهاءِ حرفَ الابتداء (مِن) الذي حُذف ليدلَّ على أنَّ ذكر التّأخيرَ هو الأهمُّ، وهو مُستمِرٌّ من زمنِ وقوعِ المعاصي منهم إلى زمنِ موتِهم أوْ نشورهم للحسابِ والجزاء.

بلاغةُ استعمالِ ﴿أَجَلٍ﴾ وتنكيرِها:

الأجلُ نِهايةُ دُنْيا الإنسانِ؛ لتبدأَ أُخْراهُ

جاءَ استعمالُ مفردةِ (الأجلِ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّه لا تأخيرَ بعدَه مطلقًا؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ فلا يستقيمُ مع معنَى التَّأخيرِ التَّعبيرُ بالعُمُرِ، وتنكيرُ ﴿أَجَلٍ﴾ يفيدُ تفخيمَه وتهويلَه وتعظيمَه؛ لِما فيهِ مِن حَسْم؛ لأنَّهُ آخِرُ مُدَّةِ العُمُرِ المَضْروبةِ لهُم في عِلْمِ اللهِ سبحانه، وبَعْدَهُ مُباشَرةً تكونُ المُفاجَآتُ العَظيمَةُ، والأَهْوالُ الفَخْمَةُ الجَسيمَةُ.

دلالةُ وصْفِ الأجل بـ﴿مُّسَمًّى﴾:

إخبارُ الإنسانِ بمجيءِ ما يُنكِرُهُ يُقْلِقُه فيُنكرُه

وُصِف الأجلُ بأنَّه ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للدّلالةِ على مَجيءِ البَعْثِ الذي لا يُؤْمِنُ به المشركون؛ أي: إنَّ هذا الأجلَ سمّاه اللهُ في الأزَلِ؛ لانقضاءِ أعمارِهم، ثمَّ لبعْثِهم مِن قبورِهم[1]، ومعنَى هذا الوصفِ قرينةٌ على إفادة تنكير ﴿أَجَلٍ﴾ ما ذكرنا؛ لأنَّ عندَ البعثِ وبعدَه تظهرُ العجائبُ، وتُبلَى السَّرائرُ، وإنَّما قال القرآنُ: ﴿مُّسَمًّى﴾ دونَ: (مُعَيَّنٍ أو مُقدَّرٍ)؛ لأنَّه أبلغُ في إفادةِ أنَّه مُعَيَّن أوْ مُقَدَّرٌ؛ فالأجلُ معيّنٌ مُقدّرٌ، وهو دليلُ التّعيينِ والتّقدير؛ وهو يُشيرُ إلى كمالِ علْمِه تعالى بأحوالِ خَلْقِه.

معنى (الفاء) ودلالتُها:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ عاطفةٌ لِما بعدها على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 238.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ مَجيء أجلِهم؛ ووراءَ هذا مِنَ المعنَى حقارةُ الدُّنيا؛ لأنَّ المكثَ فيها ينتهي؛ وإنْ طالَ؛ ففي (الفاءِ) ترغيبُ النّاسِ في كسبِ الأعمال الصّالحة، ورأسُها التَّوحيدُ، وترهيبُهم مِنَ السّيِّئاتِ عامَّة والشِّرْكِ خاصَّةً، وتهديدُهم بسرعةِ مَجيء الجزاءِ؛ المُترتِّبِ على مجيءِ أجلِهم سَريعًا.

الـفـاءُ تكشِف للنّاسِ حقيقةَ مُـــدَّةِ تـأخـيرِ مُجازاتِهم

دلالةُ استعمالِ (إذا):

جاء استعمالُ (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ دونَ (إن)؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ مجيء أجلِهم؛ لأنَّ اللّه "لا يُبدِّلُ القولُ لديه؛ لِما له مِنَ الصِّفاتِ التي هيَ أغربُ الغريبِ عندَكُم؛ لكونِكُم لا تُدْركونها حقَّ الإدراكِ"[1]، وفي تحقيقِ مجيء أجلِهم تهديدٌ ووعيدٌ لهُم.

تـحـقُّـقُ مجيءِ الأجـــلِ يُـشـعـرُ بانتهاءِ الأجلِ

دلالةُ التّعبيرِ بالمجيء ماضيًا:

جاء التّعبيرُ بمفردةِ المجيء المسندِ إلى الأجلِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ لأنَّ مجيءَ الأجلِ مجيءٌ صَعْبٌ[2]؛ فهو مجيءُ الموت، والموتُ صَعْبٌ على الإنسانِ، وفي إسنادِ المجيء إلى الأجل وهو الوقت المعلوم مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ الظّرفيَّة؛ إذِ الوقتُ لا يأتي بل يأتي الموتُ في الوقتِ المحدَّد، والغرضُ منه القطعُ بحلولِه ونزولِه كما نقطعُ بحلولِ المستقبلِ منَ الأوقات، والأصلُ في الفعل بعد (إذا) أنْ يكونَ مضارعًا؛ لأنَّها للشَّرْطِ في الاستقبالِ، وإنَّما جيءَ بعدَها بالماضي؛ لكونِه أقربَ إلى القَطْعِ بوقوعِ الفعلِ الذي تدلُّ عليه (إذا)؛ نظرًا إلى جانبِ اللَّفظ؛ فهو ماضٍ لفظًا مستقبلٌ معنًى؛ ففي ذلك إبلاغٌ في تحقيقِ مَجيءِ أجلِهم؛ فتعلو نبرةُ التَّهديدِ والوعيدِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 238.

(2) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 32 - 33.

دلالةُ الإضافة:

الإخبارُ بمجيءِ الأجـلِ إخبـارٌ بمجيءِ الجزاءِ وشدّتِه

آثرَ النَّظمُ الكريم الإضافةَ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ دون أنْ يقولَ: (فإذا جاء الأجلُ)؛ لإرشادِ السّياقِ إلى أنَّه أجلُ النّاسِ؛ ففي إضافةِ الأجلِ إلى ضميرِ النّاسِ إبلاغٌ في حصولِ أجلِهم ومجيئِه، وحصولِ ما يترتَّبُ على ذلك مِنَ المُجازاةِ؛ فكانتِ الإضافةُ مُشْعِرةً بجزاءِ الشَّرْطِ بقوَّةٍ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشّرط:

حصـولُ الأجـلِ حصولٌ للجزاءِ؛ إبلاغًا في حصولِ الجزاءِ

المرادُ بـ(الأجلِ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ إمّا الموتُ وإمّا البعثُ يومَ الحَشْر، وجوابُ الشَّرْطِ محذوفٌ على الوجهيْن، وتقديرُه بالمُجازاةِ ظاهرٌ على الوجهِ الثّاني، أي: إذا جاءَ أجلُهم جازَيناهُم، وأمّا على الوجهِ الأوَّل فعلى أنَّ الجزاءَ يبدأُ مِن ساعةِ حُلولِ الأجلِ؛ نظرًا إلى ظهورِ الحقائقِ على وجوهِها للإنسانِ عند المُجازاة؛ فكذلك هيَ عند حلولِ الأجَل، أوْ نظرًا إلى سُرعةِ مجيءِ الجزاءِ بعدَ مجيءِ الأجَل؛ كأنَّه لا اعتبارَ بالمُدَّةِ التي بينَ حُلولِ الأجَلِ وحصولِ المُجازاة؛ إبلاغًا في التَّرهيبِ والتَّهديدِ الحاسِم، ودليلُ كونِ تقديرِ المحذوفِ هو فعلُ (جازاهُم) قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾، وفي الحذفِ إشارةٌ إلى الحَسْمِ والقَطْعِ في المجازاةِ؛ مبالغةً في بيانِ تحقُّقِه؛ نظرًا إلى التَّأخيرِ والإمهالِ، وأنَّ النّاسَ مهما طالَتْ مُدَّةُ تأخيرِ جزائهم ومُؤاخذتِهم فجزاؤُهُم كائنٌ لا محالةَ، وحسَّنَ حذفَ الجوابِ قوَّةُ إشعارِ إضافةِ (الأجلِ) إلى ضميرِ النّاسِ به.

معنى (الفاء) ودلالتُها:

رقـابـةُ اللـه للعبادِ إشعارٌ بمُجازاتِهم على أعمالِهم

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ تعليليَّةٌ؛ بجعْلِ ما بعدَها علَّةً لِما قبلَها، وما بعدَها موضوعٌ موضعَ جزاءِ الشَّرْطِ، وليس بجزائِه؛ لتحقيقِ حصولِ المجازاةِ؛ إذا جاءَ أجلُ

النّاسِ، وهذا توكيدٌ خفيٌّ لذلك؛ يواجِهُ إنكارَ كثيرٍ مِنَ النّاسِ للبعثِ وما بعدَه؛ وهمُ المشركونَ.

غرضُ التّوكيد:

تـوكـيـدُ المُـنـكَـر تحريكٌ للنَّظَرِ في اعتقادِ ثُبوتِه

مِن عناصرِ التَّوكيدِ الظّاهرِ لمضمون جزاءِ الشَّرْطِ المحذوفِ؛ بتوكيدِ ما يدلُّ عليه؛ وهو ما بعدَ (الفاءِ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾، فحرف (إنَّ) التي تواجه إنكارَ القومِ للبعثِ؛ وإنكارُ البعثِ يلزمُ عنه إنكارُ مضمون ما بعد (الفاء) في هذه الجملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة:

يَحسُنُ الإظهارُ في جملة التّعليل والتّبيين

أظهَرتِ الفاصلةُ اسْمَ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ بعدَ ذكرِه بالاسم الظّاهر في صدرِ الآية، ثمَّ بضميرِه في باقيها؛ لأنَّ الغرضَ إثباتُ الألوهيَّةِ؛ في مُقابلةِ إثباتِ بطلانِ الألوهيَّةِ لِما يدعوه المشركونَ مِن دونِ اللّهِ؛ اتِّساقًا مع حركةِ المعنى في السّياقِ، والأبلغُ في هذا الإثباتِ في مقطعِ السّورةِ الإظهارُ لا الإضمارُ.

سِرُّ ذِكْرِ فعلِ الكونِ الماضي:

رقـابـةُ الـلـه الـقـديـمـةُ تـزيـدُ مـنَ الـطّـمَـعِ في الـرَّحـمـة والـتّرهـيـبِ مـنَ العذاب

آثرَ النّظمُ الكريم ذكرَ فعلِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ لكونِ الآيةِ آخرَ آيِ السّورةِ، فكانَ الأعلى الإبلاغَ في تقرير الألوهيَّةِ؛ بذِكْرِ كلمةِ الكونِ الماضي؛ الدّالِّ على أنَّ كونَه تعالى بصيرًا بعبادِه مِن شأنِه ومِن أخَصِّ صفاتِه؛ فمِثْلُ ذلك لا يَصْدُرُ إلّا عنه سبحانه، والفعلُ إذا أُسْنِدَ إلى اللّهِ تجرَّدَ مِنَ الزَّمان، أي: كانَ، ولم يزَلْ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ (عباد):

الإخـبـارُ بأنَّـهـم نـاسٌ أوّلَ الآيـة؛ لـيُـلـفـتـهـم إلى أنَّـهـم عبادٌ في آخِرِها

في التَّعبيرِ عنِ (النّاس) بلفظ (العباد) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ دون الضَّمير؛ بأنْ يُقال: (فإن الله كان بهم

بصيرا)؛ إشارةٌ إلى ما ينبغي أنْ يترتَّبَ على كوْنِهِ الَّذي أوْجَدَهُم؛ بدلالة الإضافة؛ وهو أنْ يكونوا عبادًا له وحْدَه فيوحِّدوه، ولا يُشْرِكوا به شيئًا، وذلك جوهرُ العبوديَّةِ الحَقَّةِ الصّادقةِ؛ وفي هذا تقريبٌ لهم، فذكرَ وصفَهم ليعرفوا حقيقةَ رَصفِهم.

دلالةُ الإضافة:

معرفةُ الإنسانِ حقيقةَ حالِه تدعوه إلى الاعترافِ بحقيقةِ مآله

أضافَ القرآنُ العبادَ إلى ضميرِ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ دلالةً في نورِ سياقِ إثباتِ الألوهيَّة الحقَّة، ودحْضِ الألوهيَّة الباطلةِ على أنَّ اللّه هو الَّذي "أوجدَهُم، ولا شريك له في إيجادِ أحدٍ منهم بجميعِ ذواتِهم وأحوالِهم"[1]، وهذهِ الإضافةُ تعليلٌ في المعنى لمضمونِ الجملةِ المُثْبَتِ، وفي إضافتهم إليه بمعونة ذِكْرِ العبودية في (عباد) نوعُ تقريبٍ لهم في مقطعِ السّورةِ؛ رحمةً بهم؛ لعلَّهم يرجعونَ عن معصيتِه إلى طاعتِهِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

لُطْفُ اللّه بعبادِه قرينُ مراقبةِ أفعالِ عبادِه

كان الظّاهرُ أنْ يتقدَّمَ ﴿بَصِيرًا﴾ على ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ لأنَّه خبرُ الكونِ الماضي، و﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلِّقٌ به؛ ففي التَّقديم إبلاغٌ في تقرير بصَرِه وعلْمِهِ تعالى بأحوال عبادِه، وبمَن يستحقُّ الثَّوابَ بما كَسَبَ، والعقابَ بما كَسَبَ؛ لاشتمالِ المُقدَّمِ على إضافةِ العبادِ إلى اللّه تعالى؛ أفلا يكونُ اللّه بصيرًا بخَلْقِه أعلى ما يكونُ بصرٌ وعلمٌ؟! ولا يجوزُ حَمْلُ التَّقديمِ على الاختصاصِ والقَصْرِ.

غرضُ صيغةِ المبالغةِ والتَّنكير:

إحاطةُ علمِ اللّه تعالى لا تُحيطُ بها العقولُ

تدلُّ صيغةُ (فعيل) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ على شيءٍ مِن حقيقةِ المعنى؛ وهو كمالُه بحيثُ لا يكادُ يتحدَّدُ الأفرادُ المتعلِّقةُ به، وبحيثُ يُحيطُ بصرُه وعلمُه تعالى بكلِّ ما يتعلَّقُ بالعبادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 238.

جميعًا؛ ومَن يقدرُ على ذلك؟! وبذلك يظهرُ لنا التَّناغي بين هذه الصّيغة وبينَ جمعِ الكثرة ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾، وبه يظهرُ لنا أيضًا دلالةُ تنكير ﴿بَصِيرًا﴾ على غايةِ التَّعْظيم؛ أي: ارتفاعِ شأنِ هذا الوصفِ إلى حدٍّ لا يُمكِنُ معَه أنْ يُعْرَفَ على جهةِ الإحاطةِ والتَّمامِ والكمالِ.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في جوابِ الشَّرْطِ:

مُتابَعَةُ حركةِ المعنَى في السّورةِ تهدي إلى أسرارِ مُكوِّناتِها

جاءَ بعد قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾؛ وهو دليلُ جوابِ الشَّرط المحذوفِ الَّذي هو المُجازاةُ على كسبِ الخير والشَّرِّ، وليس هو جوابَه؛ وإنَّما كان الجزاءُ المُجازاةَ، وكانَ هذا دليلَها؛ نظرًا إلى سياقِ السِّباقِ ونورِ حركة المعنى فيه، وهذه الجملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ لمّا كانت تُحقِّقُ وتؤكِّدُ حصولَ الجزاءِ في الآخرة على ما كسبوا؛ على جهة اللُّزوم؛ فإنَّها مؤسَّسَةٌ على التَّهديدِ بمجيءِ سُنَّةِ الله في الأوَّلين في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، إذ حالُهُم يقتضي حتميَّةَ حصولِ الجزاءِ لهم في الدّنيا؛ بدليل هذا التّهديد، فإذا تأخَّر في الدُّنيا كان حاصلًا لا محالةَ في الآخرة؛ فكان هو المُحْتفَلَ به في آخرِ آيةٍ؛ من جهة جَعْلِه جوابَ الشَّرْطِ، وتحقيقِه بآخرِ جملةٍ في الآية والسّورةِ، ثمّ لمّا كان تعالى بعباده بصيرًا كان من شأنه أنْ يفتح لهم رحمةً، ويُمْسِكَ لهم أخرى.

في حينِ جاءَ بعدَ قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ في سورة النَّحل قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: 61]، وهذا هو عينُ جوابِ الشَّرْطِ، وهو يُحقِّقُ مجيءَ الأجلِ بأنَّه لا يتأخَّرُ ساعةً ولا يتقدَّمُ ساعةً؛ وإذا كان كذلك كانَ من شأنِه أنَّه يكونُ لا محالةَ؛ لأنَّه مُحدَّدٌ ومُقدَّرٌ بعِلْمٍ عَليٍّ؛ وهذا يعني وقوعَ الآخرةِ لا محالةَ؛ لأنّها تكونُ عقبَ مجيءِ أجلِهم؛ لأنَّ دخولَ القبرِ أوَّلُ مراحلِ الآخرةِ؛

والبعث منه أوَّلُ حقائقِها؛ وكلُّ أولئكَ رَدٌّ في لُطْفٍ على إنكارِ الآخرةِ المُتَّصِلِ بقضيَّةِ الشِّرْكِ باللّٰه تعالى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكسبُ والصُّنعُ والفِعلُ والعَمَلُ:

الكسبُ مَلحوظٌ فيه التّحرّي، والصُّنعُ الإتقانُ، والعملُ القصدُ، والفِعلُ أعمُّها

(الكَسْبُ) ما يَتحرّاهُ الإنسانُ مِن عَمَلٍ فيه اجتلابُ نفْعٍ وتحصيلُ حَظٍّ؛ ككَسْبِ المال؛ فهو قائمٌ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، ولا يكونُ إلّا مِنَ الإنسانِ، والكَسْبُ: يُقال فيما أخَذَه الإنسانُ لنفسِه ولغيرِه، والكسبُ ورَد في استعمالاتِ القرآنِ بمعنى: فعل الصّالحات والسَّيِّئاتِ.

و(الصُّنْعُ) ترتيبُ العمل وإحكامُهُ على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يوَصِّلُ إلى المراد منه؛ ولذلك قيل للنَّجّار: صانعٌ، ولا يُقال للتّاجر: صانع؛ لأنَّ النَّجّار قد سبَق علمُه بما يريد عملَه مِن سرير أوْ بابٍ، وبالأسبابِ التي توصِّلُ إلى المراد مِن ذلك، والتّاجرُ لا يعلم إذا اتَّجَر أنّه يصِل إلى ما يريدُه مِنَ الرِّبْح أو لا، والصُّنْعُ أيضًا مُضمَّنٌ بالجودة؛ ولهذا يُقال: ثوبٌ صنيعٌ، وفلانٌ صنيعةُ فلانٍ؛ إذا اسْتحضَّه على غيرِه، وصنَع اللّٰهُ لفلانٍ، أي: أحسنَ إليه، وكلٌّ ذلك كالفعل الجيِّد؛ فالصُّنْعُ إجادةُ الفعلِ.

و(الفعلُ) لفظٌ عامٌّ؛ يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلْمٍ أوْ بغير علم، وبقصدٍ أوْ بغير قصْدٍ، ولِما كان مِنَ الإنسان والحيوان والجماد؛ فكلُّ صنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا.

و(العملُ) لا يُقال إلّا لِما كان مِنَ الحيوانِ دونَ ما كانَ مِنَ الجمادِ، ولِما كان بقصْدٍ وعلمٍ دونَ ما لم يكُن عن قصدٍ وعلْمٍ؛ قال بعضُ الأدباء: العملُ مقلوبٌ عنِ العلْم؛ فإنَّ العلْمَ فعلُ القلب، والعملَ فعلُ الجارحة؛ وهو يبرزُ عن فعلِ القلبِ الذي هو العلمُ، وينقلبُ عنه.

والصّنعُ يكون بلا فكر؛ لشرف فاعلِه، والفعل قد يكون بلا فكر؛ لنقص فاعلِه، والعملُ لا يكونُ إلّا بفكرٍ؛ لتوسُّط فاعلِه؛ فالصُّنعُ أخَصُّ المعاني الثّلاثة، والفعلُ أعمُّها، والعملُ أوسطُها، فكلُّ صنع عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا؛ وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[1].

الدّابَّة والحيوان:

الدّابَّةُ ملحوظٌ فيها الدّبيبُ، والحَيَوانُ ملحوظٌ فيه الحياةُ

(الدّابَّةُ) كلُّ ما يَدِبُّ على الأرضِ مِمّا له حركةٌ؛ والدَّبُّ والدَّبيبُ مَشْيٌ خفيفٌ، و(الحيوانُ) مَقَرُّ الحياةِ؛ ويُقال على ضربيْنِ: أحدُهما: ما لهُ الحاسَّةُ، والثّاني: ما لهُ البقاءُ الأبَديُّ؛ وهو المذكورُ في قولِه ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وقال بعضُ أهلِ اللُّغة: الحيوانُ والحياةُ واحدٌ، وقيل: الحَيَوانُ ما فيه الحياةُ، والمَوَتانِ ما ليس فيه الحياةُ، والأفرادُ التي يُطْلَقُ عليها: (الحيوانُ) في أصلِ اللّغةِ أقلُّ بكثيرٍ مِنَ الأفرادِ التي يُطْلَقُ عليها (دابَّة) في أصل اللُّغةِ؛ فالعمومُ في (دابّة) أعلى منه في (الحيوان)[2].

التَّأخيرُ والإمهالُ:

كلُّ إمهالٍ تأخيرٌ؛ وليس كلُّ تأخيرٍ إمهالًا

(التَّأخيرُ) مُقابِلُ التَّقديمِ؛ لدلالة أصلِه على خلافِ التَّقدُّم؛ قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: 13]، وقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42]، و(الإمهالُ) مِنَ المَهَلِ الذي هو التَّؤَدةُ والسُّكونُ؛ يُقال: مهَل في فعلِه، وعمِلَ في مُهْلةٍ، ويُقال: مَهْلًا نحوُ: رِفْقًا، فالتّأخيرُ أعمُّ مِنَ الإمهالِ؛ لأنّه قد يكونُ فيه تُؤَدةٌ وسُكونٌ، وقد يكونُ فيه عكسُ ذلك، وقد يكونُ فيها ذلك كلُّه، وقد يُلاحَظُ فيه غيرُ ذلك كلِّه.

---

(1) الراغب، المفردات: (صنع)، (كسب)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 321 - 323، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).

(2) الراغب، المفردات: (حيي)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 208.

الأجَلُ والعُمُر:

الأجلُ لا يتبدَّلُ، وقـد يـتـبـدَّلُ العُمُرُ

(الأجَلُ) الوقتُ المضروبُ لانقضاءِ الشّيء، ولا يكونُ أجَلًا بجَعْلِ جاعلٍ، وما عُلِمَ أنَّه يكونُ في وقتٍ فلا أجلَ له إلّا أنْ يحكمَ بأنَّه يكونُ فيه، وأجلُ الإنسانِ هو الوقتُ لانقضاءِ عُمُره، وأجلُ الدَّيْنِ محلُّه؛ وذلك لانقضاء مُدَّة الدَّيْنِ، فالأجل: هو آخِرُ مُدَّة العُمُر المضْروبة في علم الله تعالى؛ فهو لا يتبدَّلُ.

و(العُمُرُ) هو ما يتبدَّلُ، ويَحتملُ الزّيادةَ والنُّقْصانَ؛ لأنَّ لله كتابيْنِ: كتابًا مخزونًا محفوظًا عنده، وهو المُعبَّرُ عنه بأُمِّ الكتابِ، وكتابَ محوٍ وإثباتٍ، ويُستأنَسُ هذا الفرقُ بينَ الأَجَل والعُمُر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: 11]، وقولِه في غيرِ موضعٍ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: 61][1].

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 19 - 20، والراغب، المفردات: (أجل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»